Arab Journal of Sciences and Research Publishing
Volume (6), Issue (4): 30 Dec 2020
P: 72 - 88

AJSRP
ISSN: 2518-5780

المجلة العربية للعلوم ونشـر الأبحـاث
المجلد (6)، العدد (4): 30 ديسمبر 2020 م
ص: 72 - 88

Towards Teaching Contemporary Arabic Linguistics between (Theorizing and Application)

Sahli Djelloul

Khaldi Hicham

University of Abi Bakr Belk aid || Tlemcen || Algeria

Abstract: There is no doubt that language formed, through the chronological times of human existence, the basis for ithwresearch and study in the various fields of the natural and human sciences, as they are not just sounds and signals which every people communicates as he defined them (Ibn Jinni 922 AH - 392 AH) , Or a set of structural functions of andlspeech, as described centuries later (Ferdinand de Saussure 1857-1913) not only, but language transcends geographica intellectual boundaries to verify and translate the epistemological content of man. We see the superiority of living languages over other languages, and reaching this superiority requires reconsidering the important references of the language and integrating it with the developments of contemporary linguistic thought, and given the importance of the topic, this study came as an attempt to re-theorize comprehensively and purposefully in the educational field of the Arabic language, and it is worthy of us in this. The talk about the dream of realizing a contemporary Arabic linguistic thought befitting the status of the Arabic language, such as what was adopted and worked on by Professor (Abd al-Rahman Hajj Salih). Didactic reality lesson The Arabic linguist and its prospects, so we had to ask, saying, What are the stakes facing the development of the Arabic language? What are the most important theoretical and scientific alternatives relied upon in order to advance it globally? How can institutions and active bodies facilitate and market linguistic thought in the Arabic language to non-native speakers?

Keywords: language, linguistic lesson, references, theorizing, language teaching.

نحو تدريس لسانيات عربية معاصرة بين (التَّنظير والتطبيق)

سهلي جلول

خالدي هشام

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان || الجزائر

الملخص: ما من شك في أنّ اللغة شكّلت عبر الأزمنة الكرنولوجية للوجود الإنساني، منطلق البحث والدّراسة في مختلف مجالات العلوم الطبيعية والإنسانية، فهي ليست مجرد أصوات وإشارات يتواصل بها كلّ قوم كما عَرّفها (ابن جنّي 922هـ-392هـ)، أو مجموعة وظائف بنيوية للكلام، كما وصفها بعدهُ بقرون (فرديناند دوسوسير- Ferdinand de Saussure 1857-1913) فحَسب، بل تتعدى اللّغة الحدود الجغرافية والفكرية لتحقّق وتترجم المحتوى الابستمولوجي للإنسان، لذلك نلمس تفوق اللّغات الحية على اللّغات الأخرى، والوصولُ لهذا التفوق يتطلب إعادة النَّظر في المرجعيات الهامة للُّغة، ودمجها مع مستجدات الفكر اللّساني المعاصر، ونظرًا لأهمية الموضوع جاءت هذه الدّراسة كمحاولة لإعادة تنظير شاملة وهادفة في الحقل التعليمي للغة العربية، وجديرٌ بنا في هذا المقام الحديث عن حلم تحقيق فكر لساني عربي معاصر، يليق بمكانة اللغة العربية، كالذي تبناه وعمل عليه البروفيسور (عبد الرحمان حاج صالح)، وقد اعتمدنا جهوده كنموذج في هذه الدّراسة، وعليه كان لزاماً تناول هذا الانشغال، وفق منهجين تحليلي واستقرائي، ومعالجة واقع ديداكتيك

الدرس اللّساني العربي وآفاقه، كما وجب علينا أن نتساءل قائلين: ما الرهانات التي تواجه تطوير اللغة العربية؟ وما أهم البدائل النظرية والعلمية التي يعولُ عليها في سبيل الرقي بها عالميا؟ وكيف يمكن للمؤسسات والهيئات الفاعلة تيسير وتسويق الفكر اللساني للغة العربية للغير الناطقين بها؟

الكلمات المفتاحية: اللغة، الدرس اللّساني، مرجعيات، تنظير، تعليمية اللغة.

1- المقدمة:

يستثيرُ الفكر اللّساني العربي المعاصر، بتجلياته وتمظهراته رغبة الباحث والمتخصص والناقد على حدٍّ سواء في ميدان الدّراسات اللّغوية، نحو التحري والكشف عن قضاياه ومسائله العلمية، سواء على مستوى المنهج أو على مستوى الإجراء، ذلك أنّ استقرائنا للواقع المعرفي العربي، ينذر لا محالة بالتردي تارةً، والتقوقع الفكري تارةً أخرى، خاصة إذا تحدّثنا عن حال اللّسانيات العربية، وانقسام الكتابات اللّسانية على نفسها قديما وحديثاً، ما أنتج حالة من الضبابية واللانفتاح، داخل المؤسسات التعليمية، التي لا تزال تصارع أزمة المصطلح الغربي ومشكل التلقي، لذا فإنّ استهدافنا لهذا المسعى في دراستنا هذه، كان أولويةً هامة نحاول من خلالها تمرير جلّ الانشغالات الراهنة، التي تشهدها اللّسانيات العربية على جانبها النّظري والتطبيقي، مع التركيز على أهم الجهود التي تبذل في سبيل تطوير ديداكتيك علوم اللّغة العربية، بشكل خاص داخل المؤسسات التعليمية على مختلف أطوارها.

2- مشكلة الدراسة:

تتجلى مشكلة البحث في هذه الدّراسة من خلال الكشف عن أهم المعوقات والمسائل المستعصية، التي تحتاج إلى إجابات موضوعية، لجملة من التساؤلات الضمنية الآتية:

1. هل يمكن القول أنّ أزمات الدرس اللّساني العربي المعاصر هي نتاج صراع فكري بين الهُوية والآخر؟
2. ما الآفاق المستقبلية لديداكتيك اللغة العربية في الوطن العربي؟
3. ما الاستراتيجيات المأمولة لعصرنة تراث اللغة العربية ودعم انفتاحها على الناطقين بغيرها؟

فرضيات الدراسة:

تفترض الدّراسة في هذا المقال البحثي، وجود علاقة تكاملية حتمية بين اللغة العربية وتعليميتها، والفكر اللّساني المعاصر، من خلال إسقاط نتائج البحث اللّساني على ديداكتيك اللغة العربيةّ، في المنظومات التربوية العربية بشكل خاص، وهذا يستلزم فرضيتين أساسيتين في ضمنيات البحث هما:

1. إعادة تنظير الفكر اللّساني العربي، والاستفادة من التراث اللغوي، مع الأخذ بنتائج اللّسانيات بمختلف فروعها خاصة منها التربوية.
2. التطرق إلى أهم المناهج الحديثة في مجال ديداكتيك العربية وفق الأليات والمخرجات اللّسانية المعاصرة.

3- أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى:

1. تسليط الضوء على مختلف المتغيرات التي تحيط بالواقع اللّساني والفكري للغة العربية.
2. استظهار أهم المعوقات المتعلقة بتعليمية اللغة العربية. وواقعها في منظوماتنا التربوية. انطلاقاً من تحليل واقع الفكر اللّساني الذي تدور في فلكه تعليمية اللغة العربية، وفق منظور الفكر (الحج صالحي).

4- أهمية الدراسة:

تكمن الأهمية في ضرورة إحياء الفكر اللّساني الدّيداكتيكي للغتنا العربية، وانتهاج ثقافة الإنتاج والتسويق الفكري والعلمي للمصطلح العربي بمختلف تخصّصاته، والعمل على بعث تعليمية اللغة العربية، في المنظومات التربوية العربية، حسب المعايير الحديثة التي أنتجتها النظريات اللّسانية المعاصرة، ودمج التراث المتميّز للغة العربية مع مختلف العلوم.

5- منهجية الدراسة:

استوجبت أهمية هذا الطرح اتباع المنهجين الوصفي والاستقرائي، والاستعانة بالتحليلي في مناحي مختلفة، قصد تقديم قراءة موضوعية تحدّد أهداف ومستويات معرفية عامة، حول المرجعيات النظرية الهامة للفكر اللّساني العربي، وتقييم جملة من الحقائق الخاصة بتعليمية مقاييس علم اللّسانيات، وكشف مختلف الارهاصات التي تعيق استقلالية الفكر اللّساني العربي، وتحرّره من الفكر الاستغرابي إن جاز الوصف.

6- هيكلة الدراسة:

تم تقسيم هذه الدّراسة إلى ثلاثة مباحث رئيسية، مبحثين نظريين، ومبحث تناولنا فيه بعض النماذج التطبيقية، حسب متطلبات البحث، حيث يركز المبحث الأول على واقع اللّسانيات العربية، ومشكلة التبعية للفكر الغربي وحصيلة جهودها، أمّا المبحث الثاني فقد تعرضنا فيه لطرح جملة من البدائل والمقترحات الهادفة إلى بناء لسانيات عربية حقيقية، أماّ المبحث الأخير فكان مخصّصاً لدور النظرية الخليلية الحديثة في دعم ديداكتيك اللغة العربية، وبلورة مفاهيم جديدة ساهمت في تأصيل الدرس اللّساني العربي الحديث. ويلي ذلك خاتمة تطرقنا فيها إلى الإحاطة بالطرح بشكل عام، وتقديم رؤية علمية شخصية تضمّنت بعضاً من النتائج والتوصيات التي اقترحناها حول مستقبل اللّسانيات العربية.

7- المبحث الأول- الإطار النظري والدراسات السابقة:

أولاً- الإطار النظري: لعلّ المتتبّع لمسيرة اللّسانيات العربية الحديثة، من خلال كتاباتها وتوجّهاتها، يدرك حجم الدور الفعال الذي قام به العلامة عبد الرحمان حاج صالح، في ترقية اللغة العربية وتنوير علومها بالمفاهيم اللّسانية التراثية المحضة وهذا يتجلى، من خلال العديد من مؤلفاته المتميّزة، ومشاريعه المنفردة (مشروع الذخيرة والنظرية الخليلية وغيرها...)، ولعلّ أبرز ما قدّم في مجال التعريف بعلم اللّسانيات، هو مؤلفهُ الموسوم ب" بحوث ودراسات في علوم اللّسان" موفم للنشر- الجزائر (2012)

ثانياً- الدراسات السابقة: ما من شك أنّ الباحث في حقل اللّسانيات العربية وتعليمية اللغات، يدرك حجم الدّراسات والبحوث التي أنجزت، ويمكننا استعراض أهم هاته الدّراسات مع ما يتناسب وموضوع المقال، خاصة تلك التي تعلقت بجهود الدكتور عبد الرحمن حاج صالح، مع الاستدلال بأهم المراجع والدّراسات ضمن متن البحث، والمتمثلة في رسلتي ماجستر، وأطروحة دكتوراه:

1. "قضايا اللّسانيات العربية الحديثة، بين الأصالة والمعاصرة من خلال كتابات أحمد مختار عمر"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علوم اللّسان، إعداد الطالبة: جغبوب صورية، إشراف أ. عز الدّين صحراوي، جامعة فرحات عبّاس سطيف- الجزائر- (2011-2012)

2. " العامل النحوي في الدّرس اللّساني المعاصر" (أعمال الدكتور عبد الرحمان حاج صالح أنموذجاً)"، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، إعداد الطالبة: شيباني زهرة، إشراف: أ.د ملياني محمد، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان- الجزائر (2011-2012)
3. الجهود اللّسانية عند الدكتور عبد الرحمان حاج صالح" من خلال " بحوث ودراسات في علوم اللّسان" مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستر في علوم اللّسان العربي، إعداد: وردة سخري، إشراف: أ.د الجودي مرادسي، جامعة الحاج لخضر باتنة، الجزائر (2015-2016)

8- المبحث الأول: واقع اللّسانيات العربية حصيلة جهود وعقود من النشأة أم تبعية حداثة غربية !:

إنّ المتصفح لتاريخ الدّراسات اللّغوية في الوطن العربية، يدركُ حجم الجهود والبحوث العلمية التي بذلت في سبيل تحقيق الانتاج الابستمولوجي، والفكري لما أصبح يعرف في الوسط الأكاديمي المتخصّص (باللّسانيات العربية(Linguistic Arabic، كفكر عربي تأثّر باللّسانيات الغربية الحديثة، لذلك فالباحث اللّساني العربي غالبا ما يجدُ نفسهُ في الوقت الراهن أمام إشكالات معرفية عديدة تعترضُ طريقهُ كلّما أرادَ، تجديد فكرة معيّنة أو قياسها على ما لديه من رصيد تراثي، بغضّ النّظر عن القارئ الذي أضحى يقع في نوع من الخلط في فهم وتلقي المصطلح اللّساني، بمعناه الحقيقي والمعمول به، كاختلاف" فقه اللّغة" عن" علم اللّغة" Linguistique باللفظ الأوروبي، أو Linguistics باللّفظ الإنجليزي، ففقه اللغة وظّفه " العلماء العرب وخصّوا به دراسة الألفاظ مصنّفة في موضوعات مع بحث دلالاتها وهو ما يحدّدُ مجال إعداد المادة اللّغوية وتبويبها على نسقٍ ييسّرُ وضع المعاجم، وقد تواتر مصطلح علم (اللّغة) بهذا المعنى المدقق عند الرضيّ الاستراباديّ وأبي حيّان النّحوي وعبد الرحمان ابن خلدون. (المسدي، 1984) "[1]

كما شاع تداولُ هذا الاصطلاح عند المشارقة بوجه عام، وفي الجامعات المصرية بوجهٍ خاص، وكان علي عبد الواحد وافي سباقاً إلى ذلك عند صدور مصنّفه (علم اللّغة) منذ1941م. وتلاهُ في ذلك العديد من اللّغويين منهم: تمام حسّان في " مناهج البحث في اللّغة" الصادر سنة 1955م، و" اللّغة بين المعيارية والوصفية" الصادر سنة1957م، و" علم اللّغة مقدمة للقارئ العربي" لمحمود السعران الصادر سنة 1962م (غلفان، 2006) [2]إضافةً إلى بروز بعض التراجم العربية لمؤلفات أجنبية متنوعة.

أمّا بالنسبة للمحدثين فقد " استعملوا مصطلح (اللغة، وعلم اللغة، ومتن اللغة) بمعنى واحد، ولا يفرقون بين دلالته قديماً، وما أصبح يشيرُ إليه حديثاً. (غلفان، 2006)[3] وعزفوا عن توظيف وتداول مصطلح فقه اللغة.

ولابد من التّنبيه في هذا السّياق إلى أنّ مصطلح علم اللّغة الذي يقابله في الاصطلاح الغربي (علم اللّسانيات-Linguistique) (*) هو مفهوم" غربي النشأة غربي البحوث والباحثين. عرفته دائرة المعارف البريطانية، وحدّدت زمان ظهوره فقالت: " هو الدّراسة العلمية للغة، وهذه الكلمة استعلمت في أواسط القرن التاسع عشر. (Ferdinane & Wade , 1974)[4] حتى وإن تضاربت التسميات التي تدور كلّها حول اللغة (طليمات، 2000)[5] فنجد من المصطلحات مثلاً ما يشار إلية بالقول: علوم اللغة، علم اللغات، الدّراسات اللغوية الحديثة، الدّراسات اللغوية المعاصرة...وغيرها، وهي من القبيل نفسه، حيث أنّها تتبع الفرع من الأصل وكلّها تصبُّ في حقل دراسة اللغة وظواهرها.

كما أنّ هناك نسق أخر من الاصطلاح هو " علم اللّسان"، فقد" استعمل علماؤنا قديماً هذه التسمية للدلالة على كل دراسة خاصة باللّسان تميّزاً لها بما هو خارجٌ عنها، من علم أصولِ الفقه، وعلم الكلام، وعلم الحديث، وعلم المنطق، وعلم الحساب، والفقه التفريعي وغيرها من فنون المعرفة." (حاج صالح، 2007) [6]

وهذا الرأي يدلُّ على تجذُّر مصطلح (اللّسان) في تراثنا العربي بشكل متعدّد الاستعمال والتوظيف المعرفي، على مستوى اللغة والممارسة العلمية.

وقد احتلّت " اللّسانيات بعد أكثر من نصف قرن من النّمو (انطلاقاً من المحاضرات التي تركها دو سوسير في 1916م) وضعيةً غامضة جداً في ثقافة الجمهور العام وحتّى الجمهور المثقف. هذا النّمو أحدث حوالي 1956م موجة فعلية من التعالي اللّساني، كلُّ واحد يمكنهُ بأقل جهد أن يلوّن كل ما يقولهُ بالمصطلحات اللّسانية المجتلبة بعجلة، ممّا تولدَ عنهُ مثلُ هذا الهذيان غير المختر. " من خلال كتابتها بين هلالين مزدوجين فإنَّ كلمة ((كتابة)) تعني أثر انفتاح (؟) اللغة، نطقها (؟)، تقطيعها (؟)، تحديدها الزائد (؟)، سعتها (؟)، بصورة تظهرُ معها دائماً بأنّها ما قبل – كتابة (؟) داخل كتابة، أثر مسبق،)...) اقتطاع خطّي للصوت (؟) du son (؟) داخل الكلام (؟)، كما أنّها انخراط عضوي (...) كوسم ومحو في آنٍ معاً (؟)[7]...

يَصفُ هذا التحليل مسألة المصطلحية في تصنيف هذا العلم، الغربي الحديث منذ نشأتهِ على يد دوسوسير، وهذا الوصف يحدّد طريقة الكتابة والمستوى الأكوستيكي (The acoustic level) أي الجانب الصّوتي للمصطلح، وغيرها من المحدّدات التي نحاول إزالة اللُّبس عنها، حتى يسهلَ الأمر على القارئ الكريم، والباحث المتخصّص.

ويرى البروفيسور (عبد الرحمان حاج صالح1927-2017) في خضم هذا الجدل حول المصطلح بقوله: " إنّ القارئ قد لاحظ أنّنا نميلُ إلى استعمال كلمة (لسان) وتفضيلها على كلمة (لغة) ولهذا الميل مبررٌ سنبيّنهُ الآن. لقد ترجم بعضُ المؤلفين العرب لفظ ال (Linguistique)ب (علم اللّغة)، وكنّا لا نرى في ذلك بأساً لو أنّ كلمة (لغة) كانت تدلُّ دائماً على مفهوم اللّسان. (حاج صالح، 2012) [8]

وفي اعتقادي دون تحيّزٍ ولا مجاراة، هذا هو التناولُ المناسب والأصوب، لقضية المصطلح من ناحية الفوضى والانقسام، الذي أحدثهُ داخل ميدان الدرّاسات اللّسانية واللّغوية، فالحاج صالح يستقصدُ من خلال رأيهِ في هاته المسألة، الجانب الدّلالي لكلمة (اللغة) كبديل اصطلاحي ومفهومي ينبغي أن يحتوي ويشملَ لفظة (Linguistique) في التصّور الذهني العربي العام، لمفهوم (اللّسان) الذي يُبنى عليه علم اللّسانيات في جانبهِ الصّوري.

أمّا إذا أردنا الحديث عن المصطلح بشكل عام، دون تحديدٍ لعلمٍ معيّن فإنّنا نجدهُ " يرتدُ على الحقيقة في أحد مظاهرهِ إلى الكلام عن وضع المسمّيات أو التعبير عن الصّفات الموجودة في الأشياء، فكلّما اكتشفنا صفة أو خاصيةً جديدة في شيء ما، أو حقيقة جديدة اضطررنا إلى أن نميّزها عن غيرها بوضع حدٍّ أو لفظ أو مصطلح لها. ويقول اسحاق الشيرازي:" إنَّ الصّفات وضعت للتميّز بين الأنواع كما وضعت الأسماء للتميّز بين الأجناس، ثم تعليق الحكم على الاسم لا يقتضي نفيهُ عمّا عداهُ، فكذلك تعليقهُ على الصّفة. (أبو اسحاق وهيتو، 1980) [9]

فأصالة المصطلح اللّساني ترجعُ وتنبعُ من أصالة المرجع الذي يمثّلُ أساس وحقيقة صفة الأشياء، ويكون سبيلاً وسبباً مباشراً في تحديد الأسماء والمسميات المختلفة، وهذا إنّما يدلُ على الفكر الدّقيق الذي اتصف به علماؤنا المسلمون في تخريج المفاهيم النّظرية وتفصيل أُطرها وقواعدها. وتقعيدها علومها بعيداً عن كلّ تصنع.

يبدو أنّ صراع التّراث والحداثة ينبغي أن يأخذ صبغة الجدية أكثر، من أي وقت مضى فالقضية هنا أقربُ إلى إثبات الذّات منها إلى تأكيد التبعية أو القطيعة. لذلك فإنّ " اللّحظة الراهنة في تاريخنا العربي الحديث مازالت لحظة نهضويّة، مازلنا نحلم بالنّهضة والنّهضة لا تنطلقُ من فراغ بل لابدّ فيها من الانتظام في التراث. والشعوب لا تحقّقُ نهضتها بالانتظام في تراث غيرها بل بالانتظام في تراثها هي." (الجابري، 1991)[10]

وما هذا الواقع المتردّي الذي تشهدُه ساحة الدّراسات والبحث اللّساني العربي، إلاّ نتيجةً لذهنية الأخذ بكل ما هو فكر غربي مستحدث، ممّا أدّى إلى جعل اللّسانيات العربية كغيرها من العلوم والتكنولوجيات الحديثة، تتّخذُ

مسار انتقالها من الغرب إلى العرب إثر تخصص عدد من الدّارسين بهذا المجال، ومحاولتهم تعريف المجتمعات العربية أهم منطلقاتهِ وتطوراتهِ ونتائجهِ التي انعكست آثارها بالسّلب على حقول معرفية متنوعة. (خياري، 2011)[11]

وإذا نظرناَ إلى الأمر بموضوعية ندركُ أنّ انتقال اللّسانيات إلى الثقافة العربية لم يكن على نفس النّمط الذي عرفتهُ بقية العلوم. والسبب في ذلك يتعلقُ بموضوع هذا العلم (علم اللغة) واللغة العربية- كغيرها من اللّغات- لها نظامٌ خاص وأداة اتصال وترجمان للمشاعر، وهي لغة " القرءان الكريم"، وهو ماميّزها بالكثير من الدّراسات والأبحاث التي مسّت كلّ مستوياتها، وهذا يدلُّ على وعي أهلها، ومحاولاتهم الجادة لكشف قوانين آليات عملها. (خياري، 2011)[12]

ولعلّ الانقسام الذي أحدثهُ الصّراع الحاصل كما قلنا سلفاً، قد وقع بين الموروث والحداثة، ممّا خلّف عدّة مذاهب واتجاهات في البحث اللّساني العربي. حيث يرى د. محمود نحلة أنّ البحث النّحوي العربي يتفرعُ إلى ثلاثة اتجاهات رئيسية:" أوّلها الاتجاه النّحوي القديم أو " التقليدي" عند النّحاة القدماء ومن صدر عن منهجهم من المحدثين، وثانيهما اتجاه يربط النّحو العربي القديم باتجاهات البحث اللّغوي المعاصر في أروبا وأمريكا بحثاً عن منهج جديد يعيد صياغة النّحو القديم على أسس " أكثر علميّة"، أو إسهاماً في البحث عن المشترك (Universels) بين مختلف اللّغات الإنسانية، وثالثها اتجاه يعيد النّظر في التراث النّحوي والبلاغي القديم في ضوء نتائج البحث اللّغوي المعاصر، ويطوّرُ من هذا التراث نموذجاً جديداً للبحث اللّغوي في العربية. (محمود، 1988) [13]

هذا التراث الذي لطالما عانى ولا زَال، يعاني من التباين والاختلاف في المنهج والإجراء، داخل الكتابات اللّسانية العربية، فالخطاب اللّساني العربي، اصطبغ بنزعة غربية في العديد من جوانبه، على حساب التراث الذي يمثّل المرجع (reference)، والأصل في ميدان الدّراسات اللّغوية، فالمشكل إذن يكمن في منهج التعامل مع التراث، وأرى أنّ الباحث العربي، في وضعٍ كهذا يطرح التساؤل الآتي: هل هناك معايير مثلى وضوابط علمية، يُبنى عليها تنظير التراث العربي؟

هذا التراث الذي لازال بحاجةٍ ماسة إلى ضرورة الاكتشاف والتنقيب في رصيده العلمي والمعرفي الهائل والمنفرد، لذلك " فإنّ اللّسانيات الحديثة بنت صرحها دون العودة إلى جواهره ودون محاولة الاستفادة منها، علماً أنّها لو فعلت لحقّقت نتائج أكثر تقدّماً، ولربّما كانت على غير ما هي عليه الآن. (خياري، 2011) [14]

فوجود لسانيات غربية حداثية في الأصل، ما هو في اعتقادي إلاّ امتداد لما هو موجودٌ ومتجذّر في تراث وموروث اللغة العربية، خاصةً إذا ما نظرنا للسانيات الغربية كعلم، مستحدث يركز على بعض مستويات اللغة منفردةً، ويتجاوز بعضها في أحيان كثيرة، وتناول الظاهرة اللغوية قد سَبق إليها علماؤنا، الغرب بقرون طويلة، وتحدّث عن ذلك (ابن جنّي والخليل وسيبويه) وغيرهم من جهابذة علوم اللغة العرب، فما الجديدُ الذي أتى به دي سوسير؟ الذي تبنّى الفكر البنيوي الوصفي في دراساته.

والقول بهذا لا يعني أبداً إجحاداً للجهود الغربية في البحث اللّغوي، أو رفضاً للآخر، بقدر ما تكون دعوة لنا كعرب ومسلمين للرجوع إلى التراث والاعتزاز بقيمه، والعمل على تجديده وتخليصه من كلّ لُبسٍ، وهذا ما ينادي به أصحاب لسانيات التراث (Linguistics of heritage) على الدوام.

والتي من غاياتها وأهدافها " قراءة التّصورات اللّغوية العربية القديمة وتأويلها وفق ما توصّل إليه البحث اللّساني الحديث والتّوفيق بين نتائج الفكر اللّغوي القديم والنّظريات اللّسانية الحديثة، وبالتالي إخراجها في حلّة جديدة تبيّن قيمتها التّاريخية والحضارية." (غلفان، 2013)[15]

فالأزمة كما أشرنا سابقاً هي أزمة منهج، لابدَ أن يقابلها بديلُ تغيير الذهنيات والخروج من بوتقة التأثّر الأعمى، واتخاذ موقف التأثير الناجع، وفرض التراث العربي اللّغوي وتسويقهُ بمضامينه واستكمال جهوده وتطويره

حضارياً، بما يتناسب ومستجدات جودة البحث العلمي العالمي، وفك قيود الاستهلاك المعرفي للفكر الغربي تدريجياً. والبداية كما أشارَ إلى ذلك حاج صالح تنطلقُ من ضرورة اتخاذ منهج التعريب. وتجسيده في المؤسسات والهيئات التربوية، والإدارات بشكل حاسم لفرض العربية على مستوى المعاملات الرسمية.

9- المبحث الثاني: عنوان المبحث: البدائل الابستمولوجية- Epistemology لبناء اللّسانيات العربية الحديثة:

إنّ أهم ما يشغلُ الباحث اللّساني العربي في وقتنا الراهن، هو السّعيُ في دراساته إلى استقراء حال اللّسانيات العربية من ناحية الجديد والمستجد، وفك الغموض الاصطلاحي الذي يعترضُه أثناء تحليله للظواهر اللّغوية، وفق المناهج الغربية البنيوية منها والتوليدية وغيرها، وهذا اللّبس مردّهُ إلى عدّة عوامل متباينة، لعلّ أهمها هو سوءُ فهمٍ أو سوءُ توظيف في الغالب للمصطلح اللّساني بمعناه الغربي، البعيد عن المفاهيم التراثية العربية، التي طوّرها الغرب، بل استمدّ من مظانها في مناحي كثيرة، وأوعزَ ذلك على أنّها ابتكار وخلقٌ غربي بحت، وفي أحيانٍ كثيرة لم يعملوا بها على الوجه الصحيح الذي وجدت لأجله. " وإذا جاز لنا أن نبسّط مصادرةً في البحث أمكننا أن نقرّر افتراضاً أنّ أهل الغرب لو انتهوا إلى نظرية العرب في اللّغويات العامّة عند نقلهم لعلومهم في فجر النّهضة لكانت اللّسانيات المعاصرة على غير ماهي عليه اليوم، بل لعلّها تكون قد أدركت ما قد لا تدركهُ إلاّ بعد أمد." [16]

وعليه فالتغييب الذي تعانيه اللّسانيات العربية اليوم، سوآء على مستوى المنهج أو على مستوى الإنتاج العلمي والكتابات والجهود اللّسانية البحثية، يحتاج إلى إعادة هيكلة فكرية وعلمية شاملة، من خلال تفعيلِ جملةٍ من الإجراءات الميدانية، الخاصة بديداكتيك اللغة العربية من جهة، والارتقاء بمستوى الدّرس اللساني إلى المستوى التكنولوجي المعاصر من جهةٍ أخرى.

فالحديث عن ضرورة تنظير معرفي موحد باتَ أكثر إلحاحاً، والوصول لهذا المطلب يستوجبُ شفافية مطلقةً تجاه التراث العربي والحداثة الغربية، والفصل بينهما " متعلقٌ بفهمنا للمنهج الفكري والفلسفي واللّغوي الذي أخذ به العربُ القدامى، في دراساتهم اللّغوية. ولا يمكننا فهم ذلك المنهج فهماً موضوعياً وعلمياً عادلاً إلاّ إذا جنّدنا أنفسنا تجنيد الرّهبان، لسَبرِ هذا التراث الضّخم المبعثر." [17]

فإذا تمكّنا من تنظير وإعادة صياغة هذا المنهج الفكري والفلسفي واللّغوي العربي القديم، صياغةً علميّةً بشكل أمثل، يمكننا بعدها أن نفتح أفاقاً جديدة لثقافتنا العربية المعاصرة كتوليد المصطلح و (التسويق اللّغويLinguistic Marketing) [*] وفرض ذلك على المناهج اللّسانية الغربية، فهذا هو الانفتاح المعقول المطروح كبديل لتطوير تراثنا اللّغوي. الذي يلقى اهتماماً بالغاً من طرف جيل حديث من نخبة اللّسانيين العرب. وغيرهم ممّن يلهثون بشغف لاستكشاف العربية من الناطقين بغيرها.

وعندما نقول تراث، فالأكيد أنّ المقصود من وراء قولنا كلّ ما خلّفهُ الأسلاف من أعمال لغوية، سواء أكانت من صنيع النّحاة أنفسهم، أم مّن صنيع علماء الأصول والفلسفة والكلام، فضلاً عن مقدمة ابن خلدون، ويحاول د.ميشال زكريا سبر أغوار هذا التراث اللّغوي الثّري، فينتقي من بين جواهره بعض المواضيع الهامّة، التي يرى إمكانية إقامة توفيق بينها وبين اللّسانيات الحديثة. ويعدُّ كتاب الملكة اللّسانية في مقدمة ابن خلدون-1986- أوّل عملٍ تراثي يقدّمه المؤلف. (خياري، 2011) [18]

وتناولُ هذه الأعمال التراثية بمنهج تحليلي علمي يعدُّ دعامة أساسيةً بالنسبة للدرس اللّساني المعاصر. الذي يحتاج أكثر من أي وقت مضى إلى الشيوع التربوي إن جاز القول، وتطويره إعلامياً ودمجه مع مختلف وسائل

(الاتصال التكنولوجي الحديثcommunication-Modern technological)، لذلك تعدُّ مسألة تعليم اللغة العربية، من أعقد المسائل في وقتنا الراهن، نقاشاً وجدلاً يحتاج إعادة تنظير، ونظر كما قلنا لعدّة عوامل ومرجعيات مختلفة.

وجديرٌ بنا التّنبيه في دراستنا هذه، إلى جملة من الأسباب، التي تقف أمام نجاح تعليمية العربية، والتي يمكن في اعتقادي إرجاعها إلى وجود خلاف في فهم معادلة اللّسانيات، ولسانيات اللغة العربية، فهناك خلط ومغالطات بيّنية بينهما، والسبيل إلى فك هذا الغلطِ والخلط هو التّوجه نحو استراتيجية تأصيل ديداكتيك لسانيات عربية مستقلة معرفةً ومنهجاً وتطبيقاً، وهذا في رأي لا يتحقّق إلاّ إذا أسقطنا المحتوى اللّساني بعد تنظيره، على المحتوى الدّيداكتيكي التعليمي، لخلق لسانيات تعليمية أو (تربوية) عربية مستقلةٌ بمبادئها وآفاقها وانفتاحها. والمسؤولية الكبرى في هذا الطموح تُسند إلى اللّسانيات التطبيقية، وما تقدّم من إنتاج معرفي وعلمي للعملية التعليمية.

فواقع التعليم عموما ووضعياتهُ في بلادنا تشهدُ هشاشةً في المناهج، ونقصاً في معايير الجودة العلمية-Scientific quality standards، التي تعمل بها الدّول الرائدة في التعليم، وتأطير المعلّم الرقمي، إذ" لا يمكن لمدرس اللغة اليوم أن يجهل ما أثبته العلم في عصرنا الحاضر من حقائق وقوانين ومن معلومات مفيدة، ومناهج ناجعة في التحليل اللّغوي، وإلاّ كان مثل استاذ الفيزياء الذي يجهل أو يتجاهل تماماً الاكتشافات التي جدّت في تركيب الذرة ونواتها، وأنّ العناصر تفوق المائة- وليست أربعة، كما كان يعتقده الأوائل- وأنّها تصنّفُ بحسب عدد الالكترونات والبروتونات، وأنّ الكمياء كلّها مبنية على النّظرية الذّرية الجديدة، وأنّ هناك قوانين دقيقة أُكتشفت في عصرنا تخضع لها الظواهر الفيزيائية. (حاج صالح، 2007)[19]

والمسألة نفسها تنطبقُ بآلياتها على تعليمية اللغة العربية لكونها مهمّة صعبة تحتاجُ، إلى معرفة علمية دقيقة، ومنهجٍ يواكب مختلف المستجدات، التي تطرأ على العلوم، فالمعلّم الناجح يحتاج إلى اطلاعٍ وبحث معمّق عن مظان البحث اللّساني المعاصر من جهة، ومن جهة أخرى الانفتاح على ما يواجهه من عولمة، حتى يتمكّن من طرح الفكر اللّغوي اللّساني الخاص به، بما يتوافق والمعطيات الابستمولوجية والدّيداكتيكية Didactic.

ومصطلح الدّيداكتيك [*] أو التدريس (teaching) كما يعرّفُه العديد من الباحثين على أنّه: " نشاط تواصلي يهدفُ إلى إثارة التعلّم وتحفيزهُ، وتسهيل حصوله، إنّه مجموعة من الأفعال التواصلية، والقرارات التي يتم اللّجوء إليها بشكل قصدي ومنظم...من قبل شخص (أو مجموعة من الأشخاص) الذي يتدخل كوسيط في إطار موقف تربوي – تعلّمي (الدّريج، 2000)[20] للفئة المستفيدة من هذا التعليم.

فهو يكوّن ذاته باكتساب مهارات جديدة، كالتكنولوجيا المدمجة مع التعليم (التعليم الدّامج- Inclusive education) والتعليم النّشط والتعاوني وغيرها، فهو مطالبٌ بتوسيع مؤلفاته ومعارفه على فضاء الأنترنت، وإقامة علاقات علمية تسهم في تكوين شخصيته الحداثية المتجدّدة، بغض النّظر عن تمسكه بالمبادئ الأخلاقية والقومية التي لا يحيدُ عنها. فعالمنا الحالي عالم التقنية والسرعة في التفاعل وفرض الفكر نظرياً كان أو تطبيقياً. وهذا ما نادى به (حاج صالح) على الدّوام.

1-9 المنظور الدّيداكتيكي للسانيات العربية الحديثة:

تتّجه اللّسانيات التربوية في الوطن العربي، على مستوى البحث والدّراسة، إلى آفاق تجسيد تعليمية ناجحة، للغة العربية وعلومها، وهذا الواقع يستوجب إعادة تعديل وإصلاح شاملة للموقف التربوي الذي لابد أن تساهم فيه عدّة أطراف بشكل حتمي، وتمثّيلاً لذلك نجد ما يصطلحُ عليه علماء التربية بمبدأ العقد الدّيداكتيكي- Didactic contract، الذي يجمع بين (المعلّم والمتعلّم والمحتوى المعرفي أو المادة) وهاته الأطراف تجسّد ما يسمى في هذا العلم

بالمثلث الدّيداكتيكي- Didactic triangle كما هو معلوم لدى النخبة والمنظرين في علوم التربية، ويمكن التّمثيل لهذا المثلث بهذا الشكل على النّسق الآتي:

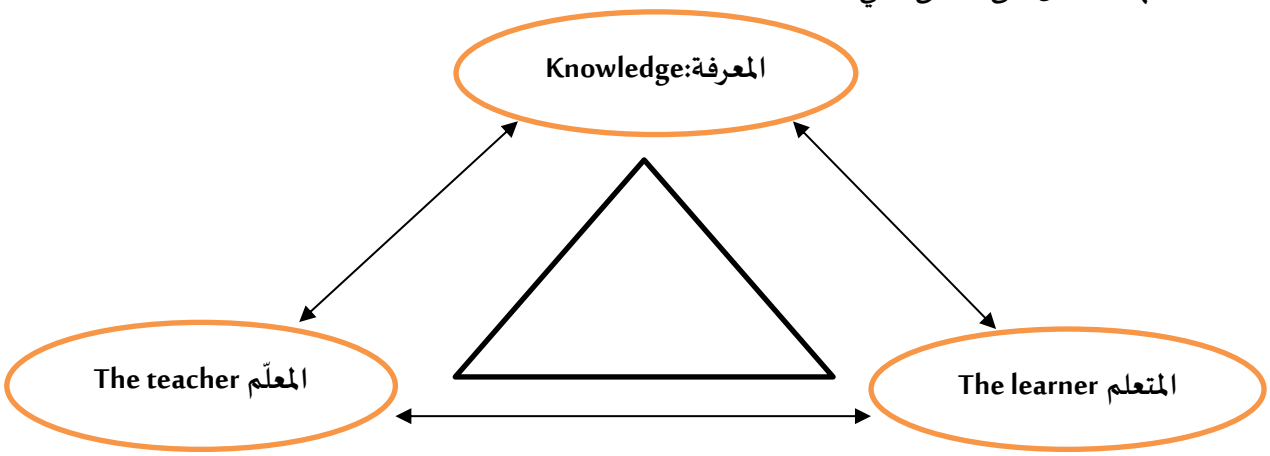

شكل توضيحي للمثلث الدّيداكتيكي-

ويعبّرُ هذا المثلث عن وجود علاقة تفاعل وارتباط بين المعلم والمتعلم والمحتوى التعليمي، وهذا التفاعل تتحكم فيه ضوابط ومصوغات تربوية وعلمية مختلفة، تهدف إلى تحقيق الفعل الدّيداكتيكي التربوي الناجح، بمعنى أدق هناك تبادل للأدوار وفق متغيرات اجتماعية ونفسية وغيرها.

وما يهمنا في دراستنا هاته هو علاقة المحتوى اللّساني اللّغوي بتدريس المادة أو ما يعرف في التداول الغربي بالدّيداكتيك وهو كما قلنا سلفاً يعرّفُه أهل الاختصاص على أنّه مجموعة العلاقة بين المتعلّم والمدرس والمحيط الاجتماعي والمادة التعليمية، وفعلُ التدريس قد أصبح مجال اهتمام الدّيداكتيكي والمصدر الأساسي لبناء الاستراتيجيات والمعارف الدّيداكتيكية ووضع الأهداف والطرق. لأي منظومة تربوية راقية [21][22]

أمّا إذا تحدّثنا عن تدريس اللّسانيات وكل ما له علاقة باللغة، فلابد من الإحاطة بعدّة جوانب ابستمولوجية مهمّة، تتعلق أولاً بالمحتوى اللغوي (Linguistic content) كمادة من جهة، وثانياً مستوى إلمام المعلّم بالمتغيرات والمستجدات المرافقة لهذا المحتوى داخل الحقل التعليمي من جهة أخرى، وهاته المسألة كان قد تحدّث عنها عبد الرحمان حاج صالح في مؤلفاته بشكل مستفيض، حيث يضع جملة من الشروط التي ينبغي أن يتحلى بها معلم اللغة قائلا عنه لابدَ: " أن يكون له تصورٌ سليم للغة حتّى يحكم تعليمها، ولا يمكن ذلك إلاّ إذا اطلع على أهم ما أثبتتهُ اللّسانيات العامة واللّسانيات العربية بصفة خاصة وهي امتداد لبحوث المدرسة الخليلية.)حاج صالح، بحوث ودراسات علوم اللّسان، 2012) [23]

نستنتجُ من هذا الطرح ضرورة إطلاع وانفتاح، معلم اللغة العربية على كل ماجدَّ في حقلي اللّسانيات الغربية العامة، من بحوث ودراسات ومؤلفات، إلى جانب ما توصلت إليه اللّسانيات العربية من نتائج ونظريات، وهنا يلفتُ حاج صالح نظرَ الباحث والقارئ معاً، إلى ضرورة الانتهال من مقومات النظرية الخليلية الحديثة، التي استحدثها كفكر لساني عربي تراثي، انطلق به (الخليل ابن أحمد الفراهيدي 100هـ-170هـ)، وقد أمدّت الدرس اللّساني العربي، بإبداع علمي مميّز لا نظير له، رغم ما وجّه لها من نقد غير بناء، صدر عن بعض المستغرقين من أصحاب الاتجاه الحداثي في اللّسانيات العربية، إلاّ أنّها مهدت لوجود أرضية البحث للعديد من الدّراسات العربية والغربية، واستفادت من نتائجها فهي بحق تعدُّ نتاجاً علمياً عربياً بهراً.

كما أنّ الجانب السيكولوجي يعدُّ من المتغيرات المهمة التي تحيط بالعملية التعليمية، في ميدان تدريس اللّغات ولا ينبغي إهمالهُ كونهُ يدخل في علاقة المتعلم والمعلم معاً، هاته العلاقة التي كما قلنا سلفاً: " يُطلق عليها بالعقد الدّيداكتيكي بالنّظر إلى أهميتها، ولأنّها بمثابة التزام يربطُ بين الطرفين للقيام بما يخدم العملية التعليمية ويعمل على تنشيطها.[24]

فاستفادة اللغة العربية من اللّسانيات العربية على المستوى التعليمي لم ترق إلى المستوى الإجرائي، المطلوب، بل إنّ الباحث يلمسُ جوانبَ الضّعف في تجسيد نتائج هاته الاستفادة، في مناحي مختلفة بغض النّظر عن بعض التجارب الناجحة في دول الخليج، (كالسعودية والإمارات والبحرين وقطر وغيرها)، ممّن استقدموا إلى منظوماتهم التربوية أحدث المناهج والتقنيات الغربية، في ميدان التعليم (كالتعليم الدامج والإلكتروني والتعاوني وغيرها)، ورغم أنّ هاته التجارب كانت ناجحة في جانبها الإجرائي، إلاّ أنّ الملاحظ عليها هو تغليبها للجانب التقني الغربي، على الجانب القومي للمنظومة التعليمية، كون هاته التقنيات تسير وفق لغتها الأم الحية، وهي اللغة الإنجليزية التي صار متداولةً في المجتمع الخليجي، بشكل كبير لدرجة تلاشي الفصحى في بعض الإدارات والمدارس، تدريجياً وهذا يعدُّ مزاحمة للغة العربية.

كما أنّ الدّراسات العربية قد أخذت حظّاً ملحوظاً من ثمار اللّسانيات، غير أنّ حظّها في الجانب النّظري أوفر منه في الجانب التطبيقي، ممّا يدفع الباحث اللّساني إلى الحكم بحدود الدّراسات النّظرية ما لم تُستغل في وضعٍ لغوي جديد، ويكاد اللّغويّون اليوم يسلّمون بداهةً بضرورةِ إعادة وصف اللّغات عموماً حتّى تكتشفُ نواميسها الخفية من جهة، وتخلص مقاييس تلقينها وبلورتها من كلّ سمة اعتباطية أو معياريّة من جهة أخرى.[25]

فهذا الحال المتقهقر، الذي تعيشه تعليمية اللغة العربية اليوم، رغم كلّ ما أنتجت اللّسانيات العربية، من جهود ومؤلفات تخدم العربية فكراً وحضارةً وديداكتيكياً، لايزال المستوى التعليمي متدنياً وصارخاً حتى في الأطوار الجامعية، والأسباب كما أسلفَنا متعدّدة ولكنّها تندرجُ في فلك نظري مجرد واحد يدور حول اللغة والتعليم، اللّهم إلاّ في جوانب شكلية فقط. وبصرف النظر عن حالة الانقسام التي نلمسها كباحثين في الكتابات والمناهج اللّسانية للغة العربية. فإنّهُ لابدَ أن تخرجَ هاته المناهج من عزلتها التي مرت بها سنون طويلةً، إلى إعادة هيكلة شاملة تسير وفق استراتيجيات حساسة، تسخّرُ لتيسير تعليم علومها ورقمنتها، وتحديث تراثنا اللّغوي والفكري واللّساني والعلمي، لتستفيد منه الأجيال العربية مستقبلاً، وتنهلَ منه عقول الغربيين ممّن يزدادُ فضولهم يوماً بعد يوم في معرفة أسرار لغتنا ومفاتيح علومها المبهرة.

وقد نادى عبد الرحمان حاج صالح في خضم مسيرته، الداعمة لتعليم العربية وعصرنتها، بجهوده المنفردة إلى فرض فكر لساني عربي بحت، ومتفتح على نظيره الغربي، ونلمسُ هذا السّبق لدى حاج صالح في دعمه وتنظيره لما عرف بالنّظرية الخليلية الحديثة كما أسلفنا، والتي أرست أبجديات وقواعد الفكر التراثي العربي، بهندام الحداثة دون المساس بمقومات هذا التراث.

10- المبحث الثالث- ملامح النظرية الخليلية الحديثة في الدرس اللّساني العربي:

يدرك الباحث المتتبّع للشأن اللّساني، في الدّراسات العربية الحديثة، أنّ الحاج صالح قد حاول تشخيص حالة البحث اللّساني العربي في مراحله الأولى، وذلك في مقال نشره في مجلة اللّسانيات في العام 1971، ينعتُ فيه البحث في هذا المجال في العالم العربي عموماً بالتأخر. وممّا يوحي بهذا التشخيص قوله: "...وكل ما هنالك هو محاولات شخصية ترمي إلى إدخال بعض المفاهيم في الدّراسات الجامعية، وملاحظات مبعثرة يقتبسها الأساتذة من المؤلفات العربية فيدرجونها في محاضراتهم..."، وفي المقابل فقد طرح عدّة بدائل تجسّدت في جهوده وأبحاثه ونظرياته

(كالنظرية الخليلية الحديثة وحوسبة اللغة والذخيرة اللغوية وغيرها من المشاريع..) ترفع اللّبس عن الطريق الأمثل للنهضة في مجال الدّراسات اللغوية العربية المعاصرة، وهو ما نحن في أمس الحاجة إليه اليوم في الجامعات العربية ككل.[26]

ولعلّه ومن باب الإنصاف العلمي أحقّية القول، بأنّ النظرية الخليلية الحديثة التي عملَ عليها العلامة عبد الرحمان حاج صالح، قد أعادت الاهتمام بمصطلح (العامل) وكشفت عن دوره في بناء التراكيب اللغوية بشكل وظيفي، منفرد ضمن حقول الدّراسات اللغوية، قبل ظهور نظرية تشومسكي الجديدة (الربط العاملي)، ويتجلى هذا في إعادة التأسيس تأسيساً جديداً ينحو بها نحو الصياغة الشكلانية والرياضية كما تقتضي ذلك قوانين ما أصبح يعرف بالمعالجة الآلية للغة وحوسبة اللغة في ميدان اللّسانيات التطبيقية. التي أخذت على عاتقها تعليم اللغات، بل ظلّت ردحاً من الزمن ولاتزال مرادفاً لتعليم اللّغات، حتّى إنّ بعض من يتصدى لهذا الموضوع يفضل تسميتها بعلم تعليم اللّغات، كما فعل ويلكنز (Wilkins) وماكي (Mackay) وسبولسكي (Spolsky).[27]

وبالحديث عن النظرية الخليلية التي صاغها عبد الرحمان حاج صالح، وألبسها ثوب التجديد اللغوي فهو يقول عنها: " لابد من ملاحظة مهمة وهي أنّ الخليل ليس هو المسؤول عن كلّ ما أبدعهُ العلماء الأولين؛ فهناك من عاصرهُ وكان عبقرياً مثله وأذكر من هؤلاء الإمام الشافعي، فهو بأصول الفقه بمنزلة النّحو وعلوم الدّين. (حاج صالح، النظرية الخليلية الحديثة، 1996)[28]

وقد اعتمد الخليل في صوغ نظريته اللّغوية على الجانب النطقي للحروف، وهو ما يمثل أهم وظائف اللغة على المستوى الأكوستيكي الصوتي، الذي تجلت بعض مظاهره عند الغرب في البنيوية والتوليدية لاحقاً، ويعدُّ الفراهيدي أوّل من ألف معجماً يشمل مخارج الحروف وقد رتّبه ونسق أبوابه بشكل علمي مبهر، والذي قام به الاستاذ حاج صالح ما هو في الحقيقة إلاّ إعادة إحياء وبلورة لما جاء به الخليل، وقد أسقط الجانب التراثي لنظرية الخليل على المحتوى والمقصد اللّساني، وبالتالي لاريب أنّ استفادة تعليمية اللغة العربية من الدرس اللّساني عموما، والنظرية الخليلية بشكل خاص، قد بدت ملامحها في مناحي كثيرة، لاسيما النّحو والصرف والدلالة وعلم التراكيب وغيرها من وظائف اللغة العربية. التي تدخل في صناعة المحتوى اللّغوي كما قلنا سلفاً.

وارتبط تداول مصطلح النظرية الخليلية، كنظرية لسانية معاصرة تعتمدُ على الفكر اللّغوي القديم، باسم أبو اللّسانيات العربية الجزائري " عبد الرحمان حاج صالح"، ولقد أطلق عليها هذا الاسم مجموعة من اللّغويين في الخارج.

وباستقصائنا البحثي في هاته النّظرية، من جانبها الصّوتي، ندركُ أنّ الخليل ابن أحمد الفراهيدي بعمله هذا قد أرسى القواعد الحقيقية لعلم العدد (الأرتميطيقيArtistic) الذي يعدُّ المدخل لعلم الجبر ومنها موضوع المتواليات الحسابية، بل نجدهُ كذلك منظّر نظرية المجموعات في صيغتها المعاصرة؛ ومن ثمةَ أليس هذا مظهراً من مظاهر الموضوعية في مبحث الدرس الصّوتي عند الخليل الفراهيدي؟[29] وقد استعنا بهذا الرسم التوضيحي لمعجم العين (ياشوش، 2003)[30]:

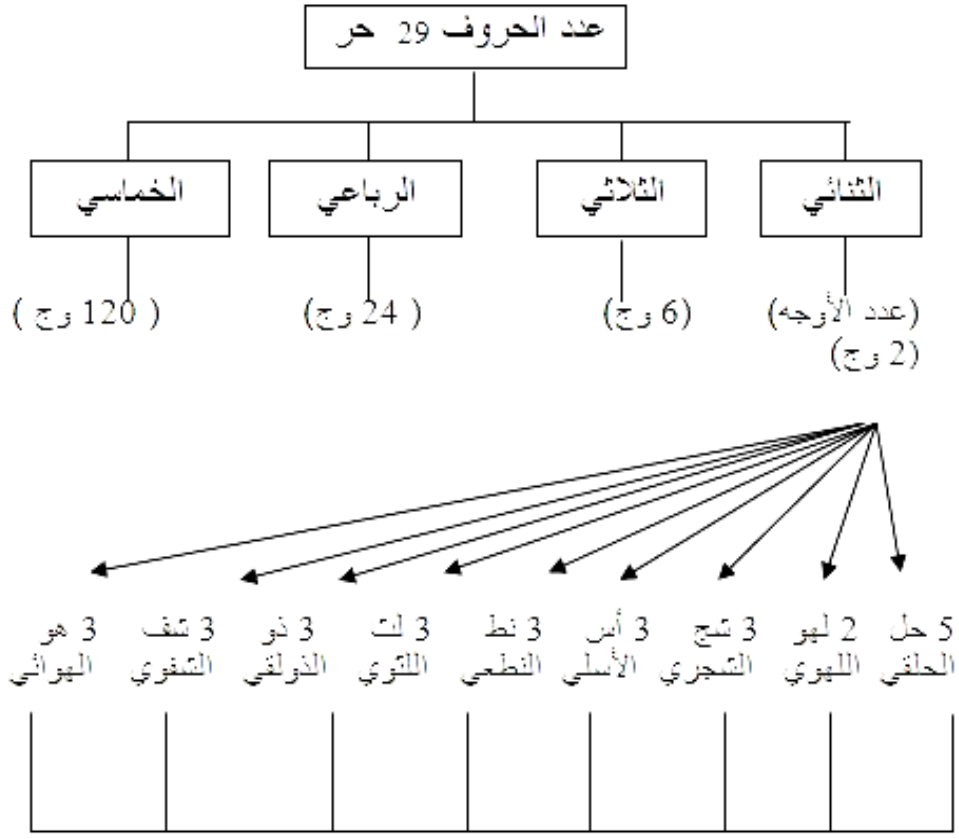

وبمنظور علم اللغة الحديث فقد أبدع الخليل في استحداث مستويين في نظريته الصوتية، يتمثلان في (التصّنيفCategory والترّميز Coding)، وقد أحصى الخليل كلام العرب في (الثنائي) و (الرباعي) و (الخماسي)، إنّما قام في واقع الأمر بتصنيف مادة معجمه اللّغوي إلى فئات (مجموعات)، وذلك بأن يبدأ بالثنائي ثم الثلاثي وهكذا دواليك، كما قام بتصنيف عناصر معجمه حسب المخرج، إذ يبدأ بالحلقي –Annular ثم اللّهوي-Divine أو الشّجري ثم الأسلي ثم النطعي ثم اللّثوي ثم الذولقي ثم الشفوي-Oral وفي الأخير الهوامش.[31]

فهاته الاصطلاحات والمفاهيم التي جاء بها الخليل في وصفه وتوصيفه لمخارج الحروف، وعمليات التصنيف والترتيب للعمل المعجمي، أضفت صبغة علمية منفردة لازالت تُتداول في الدّراسات اللغوية إلى الآن، ليس على الجانب الصّوتي فحسب، وإنّما هاته النظرية هي امتداد للنّحو العربي الأصيل، ولمن جاء بعدهما من النّحاة العرب القدامى العباقرة، ممن شافهوا العرب الأقحاح، امتداداً من القرن الثاني للهجرة، وهي الفترة الخصبة من حياة "الخليل بن أحمد الفراهيدي "وتلميذه" سيبويه "ومن جاء بعدهم من النّحاة العرب القدامى حتي القرن الخامس الهجري مع عبد القاهر الجرجاني[32]

ويقول حاج صالح مبرراً فكرة تأسيسه لهاته النظرية قائلاً: " وقد حاولنا منذ ما يقرب من ثلاثين سنة أن نحلّل ما وصل إلينا من تراث فيما يخص ميدان اللغة، وبخاصة ما تركه لنا سيبويه وأتباعهُ ممّن ينتمي إلى المدرسة الخليلية وكل ذلك بالنظر إلى الوقت نفسه فيما توصلت إليه اللّسانيات الغربية. وكانت النتيجة أن تكوّنَ مع مرور الزمان فريقٌ من الباحثين...يريد أن يواصل ما ابتدأهُ الخليل وسيبويه. (حاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية، 2007) [33]

ونخلص إلى أنّ مدى استفادة تعليمية اللغة العربية، من النظرية الخليلية وفق منظور ديداكتيكي، مرهونة بمدى الكشف عن أهم البدائل التي قدمتها لمواجهة الصعوبات والمعوقات التربوية، انطلاقاً من القوانين التي طرحتها لتغير وتنظير المحتوى الإبستمولوجي. ولعلّ هذا في رأي يستوجب التركيز على معيارين هما:

أ- اختيار المحتوى التعليمي للغة والأنشطة الدّيداكتيكية:

رغم التطور الحاصل في معظم المنظومات التربوية في العالم العربي، من خلال تبني سياسات إصلاح جديدة ومحاولة محاكاة أنظمة وتجارب غربية في ميدان التعليم، إلاّ أنّ الواقع الذي لاحظهُ المنظّرين للنظرية الخليلية الحديثة، وعلى رأسهم حاج صالح في إطار الدّراسة التي تعرف بالرصّيد اللّغوي الوظيفي المشترك، قد طالب بتغير المحتوى اللُّغوي في المدارس، لأنّه حسب رأيه لا يتناسب مع الحاجات التبليغية والاجتماعية للمتعلم، خصوصاً إذا تعلق الأمر بالتعبير عن الكثير من المفاهيم المستخدمة في الحياة اليومية[34]. فالمتعلّم يحتاج إلى وضعيات ديداكتيكية ناجحة، يكفلّها ما تحدّثنا عنه سلفاً (النقل الدّيداكتيكي)، تمكّنه من استيعاب المحتوى الملائم لقدراته ومهاراته.

ولعلّ الحصيلة اللّغوية المقدّمة لتلاميذنا في المدارس من المفردات، تتّصف بكثير من النقائص والعيوب التي انعكست عليهم سلباً في مكتسباتهم اللّغوية " فمن حيث الكم: تقدّم للطفل كمية كبيرة جداً من العناصر اللُّغوية التي لا يمكن بحال من الأحوال أن يأتي على جميعها، ولذلك تصيبهُ ما نسميه بالتخمة اللّغوية. وقد يكون ذلك سبب في توقف آليات الاستيعاب الذهني والامتثالي، وهذا ما نلاحظهُ في تنوع المفردات في النّص الواحد مع وجود صعوبات أخرى تخصُّ غرابة التراكيب بل غرابة المفاهيم، ومن حيث الكم والكيف: الكلمات التي يحاول المعلّم تلقينها تكادُ تشتمل على جميع الأبنية التي تعرفها العربية. ونلاحظ ذلك أيضاً في النّص الواحد، وهذا يسبب تخمةٌ أخرى في مستوى البنى. (حاج صالح، بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية، 2007)[35]

وقبل هذا وذاك تكمن أهمية الكتاب المدرسي ((الأساسي))؛ لكونه أهم وثيقة تربوية بيداغوجية لتعليم مختلف المهارات اللّغوية: الفهم، الاستماع، التعبير بشقيه، والقراءة، في ظل الحمولة الثقافية والاجتماعية التي يراد تبليغها مع اللغة.[36]

لذلك نرى أنّ عالم التعليم اليوم يركز على تحقيق مصطلح الجودة، على مستوى المحتوى العلمي، من خلال تنويع أهدافه، بما يتماشى وحاجات المتعلمين، والعصر وهذا في الحقيقة ما نحتاجه في منظوماتنا التربوية.

ب- تطوير تعلمية العربية وفق المنظور اللّساني للحاج صالح:

لعلَّ الكلام عن جهود عبد الرحمان حاج صالح، في مجال ترقية تعليمية اللغة العربية، يحتاج إلى بحوث ودراسات موسعة، قصد الإحاطة بها، والاستفادة منها في ميدان تعليمية اللغة العربية، فالرجل كما يُعرف عنه أنّه العالم المُثقف (متعدّد الألسن - Polyglot)، الذي تمّكن من الاطلاع على ثقافات مختلفة، ما أهلهُ لأن يتّصف في تكوينه بما يصطلحُ عليه أكاديمياً بالعالم البيّن تخصّصي (متعدّد التخصّصات-Interdisciplinaire)، ويجدرُ بنا في سياقُ اختتام هاته الدّراسة، أن نميط اللّثام عن أهم مشاريعه الحافلة في تنظير الفكر التراثي للغة العربية، كمشروع الذخيرة اللغوية ومشروع النظرية الخليلية الحديثة الذي ذكرناه، الذي كرّس جلّ اهتماماته لهما، فلطالما أوصى وطالب المرحوم بضرورة "رصد الظّاهرة اللّغوية، والتجميع، والتصنيف والإحصاء، والتحليل، بعيداً عن الاتكاء على ما أقرتهُ المجامع اللّغوية. (حاج صالح، بحوث ودراسات علوم اللّسان، 2012) [37]

ويمكن القول إنّ مرجعيته التي انطلق منها في النظرية الخليلية، تنطوي في مبدئها على معالجة مشكلة ضعف ملكة اللغة العربية، وهذا يدخل في إطار عام متصل بتطويرها في كلّ القطاعات وعلى كلّ المستويات، من قبيل ممارسة العاميات واللّغات الأجنبية، وطبيعة اللغة المكرّسة تعليمياً.[38]

وبالإجمال تعدُّ النظرية الخليلة الحديثة إضافة مميّزة ومنفردة، في ميدان اللّسانيات التربوية والتعليميات العربية في الوقت الراهن، وقد حدّد الحاج صالح عدّة مصوغات في سبيل تعليم اللغة، ووضعَ لها شروطاً تمكّن الباحث والمعلّم والمتعلّم من تحقيق هدف تعليمية اللغة على أكمل وجه، ويمكننا إدراج هاته الشروط على الوجه الآتي:

أ- مرجعيات اكتساب الملكة اللّغوية عند المتعلّم:

إنّ الملكة في اكتساب اللغة سبيل كل معلّم ومتعلم، وقد تحدّث عنها ابن خلدون (1332-1406م) واصفاً إيّاها بقوله:" والملكات لا تحصلُ إلاّ بتكرار الأفعال، لأنّ الفعل يقعُ أولاً وتعودُ منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالاً، ومعنى الحال أنّها صفةٌ غير راسخة، ثمّ يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة.[39]

ولابد للمعلّم أن يكتسب أثناء تخصّصه ملكة كافية في تعليم اللغة، ولا يتحقّق ذلك إلاّ باستفاء شرطين هما:

1. اطلاعه على محصول البحث اللّساني التربوي، من دراسات وبحوث مستجدّة تشكّل لديه الرصيد اللّغوي الشيء الذي يؤهله (للاندماج المعرفي-Cognitive integration)، مع خصوصيات اللغة العربية وتجدّدها.
2. اسقاطهُ لهذا المحصول بشكل إجرائي على تخصّصه بكيفية عملية منتظمة ومتواصلة.[40]

وعليه فتحقيق الملكة اللّغوية بالنسبة إلى أطراف العملية الدّيداكتيكية، يشكّل جوهر تعليم اللغة العربية، خاصة إذا ما نظرنا إلى هذا الواقع في مدارسنا التربوية، فإنّنا نلمسُ ضعفاً كبيراً في تحقيق فعالية تعليم اللغة، نظراً لعدم تحقق الشرطين السّابقين، فالمعلم والاستاذ والباحث والمنظّر، للغة العربية مطالب في الوقت الراهن بالاطلاع على كلّ ماجدّ من إسهامات علمية في حقل تخصّصه، مادام" البحث العلمي في اللّغات يمثّلُ في عصرنا هذا ميداناً واسعاً وهاماً، بسبب الأهمية القصوى التي يتّصفُ بها ودورهُ في رصد الاستعمال للغات وتسهيل تعلّمها وتطويرها بجعلها قادرةً على الاستجابة لما يتطلبهُ العصر الحديث والتعايش الندّ للندّ مع اللّغات الأخرى. وكلُّ هذا جدُّ مفيد لمغالبة العولمة الاقتصادية والثقافية.[41]

ب- مصطلح المهارة اللّغوية وطرائق اكتسابها:

يعمدُ الحاج صالح من خلال طرحه لفكرة التعايش مع اللّغات الأخرى، ومغالبة العولمة إلى ضرورة تحديث اللغة العربية، من خلال التركيز على دمجها بالحاسوب، وتقنيات المعلوماتية، التي تسهلُ على الطالب والباحث، يُسر الحصول على المعلومة اللغوية، والولوج إلى المحتوى المرغوب دون عناء، وهذا ما سماهُ (بالذخيرة اللّغوية) كما قلنا سابقاً. والذي يشغل النخبة من أصحاب اللّسانيات التربوية، بالأخص في المنظومة التربوية في الجزائر، هو تحقيق استراتيجية هادفة لتنمية الملكات والمهارات اللّغوية عند المتعلمين، وفق الجهود والاقتراحات التي نادى بها حاج صالح، لكونها من باب الإنصاف العلمي، راقية المضامين والأهداف الإبستمولوجية والمستقبلية في حقل اللّسانيات العربية ككيان تراثي موحد وحديث.

ذلك أنّ اللغة من خصوصياتها البديهية، هي الحاجة إلى مهارات أساسية في وظيفتها، "والمهارة تتطلبُ تدريباً عملياً إضافةً إلى الإلمام بالجانب النّظري لها، وهذه المهارات هي: الاستماع والقراءة، والكلام، والكتابة. (حاج صالح، اللّغة العربية والبحث العلمي المعاصر، أمام تحدّيات العصر، 2005) (عبد الهادي، بسندي، وأبوحشيش، 2003)[42]

11- خاتمة:

بناءً على ما سبق تناوله في دراستنا هاته يمكن القول: إنّ اللّسانيات العربية كعلم، هي أمام تحدٍّ ومتغيرات حقيقية، خاصةً وأنّ الدّراسات الحديثة في الوطن العربي تشير إلى تدني نسبة التحصيل الجيّد في تعليمية اللغة

العربية، بنسب متضائلة وخطيرة، رغم أنّ المحتوى اللّساني العربي، غني في معاجمه ومقرراته التربوية والإبستمولوجية، ولعلّ الدور الذي تقومُ به المدونات اللّغوية التي أنشأت في مكتبات عربية مختلفة، بإيعاز من مجامع اللغة العربية، التي تحدّث عنها حاج صالح كمشروع أسماهُ ((الرصيد اللّغوي)) في مقاله الموسوم ب: (مساهمة المجامع اللغوية في ترقية اللغة العربية وتجديد محتواها وتسيع آفاقها، وقد قدّم هذا البحث في مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة في مارس 2006)، وهذا المشروع يعدُّ بحق نتاجاً فكريا وعلمياً هاماً، ولكنّه للأسف لم يُستكمل كغيره من المشاريع.

إضافة إلى دور العديد من المراكز الأكاديمية، التي تبذل قصارى الجهد في سبيل دعم التعليم، والجودة العلمية وترقية اللغة العربية، لمجابهة مختلف التحدّيات ولا ريب أنّ ما نعيشهُ اليوم من عوارض وتبعات لجائحة الكورونا فيروس الكوفيد19 التي ألّمت بالعالم أجمع، وعلى لسن المثل الذي يقول " ربَّ ضارةٍ نافعة"، فقد اتجهت أغلب الهيئات العلمية إلى تقنيات العلم الحديث والتعليم عن بعد، من خلال تقنية (التحاضر عن بعد Conversation via the Internet)، وقد سخّرت الدول الغربية تطبيقات وبرامج ومنصّات لهذا المسعى، تدعم وسائط المخاطبة أو ما يعرف (بالسوشيال ميديا- social media)، كتطبيق الواتساب والتطبيق الحديث (زووم- Zoom) وغيرها، حيث باتت تجرى عبرها مختلف المؤتمرات الدولية والندوات ومختلف الفعاليات العلمية، وقد استفادت منها الدول العربية هاته الآيام، وانظمت إلى هاته المبادرة عدّة هيئات رسمية (كالفهرس العربي الموحد ومعظم الجامعات العربية والمراكز البحثية) من خلال تقديم مؤتمرات ودورات وندوات، في مختلف التخصّصات، والذي أثلج صدري كباحث وطالب علم هو أني لمستُ إقبالاً متميّز من الطلبة والباحثين والمتخصّصين، والأجمل من ذلك هو أنّ هذا الوباء قد فرضَ على العالم ككل تبنّي عملية (التعليم عن بعد - Education process) كواقع ومستقبل. وعليه يمكننا تقديم جملة من التوصيات التي ارتأيناها كمقترحات في هذه الدّراسة كتالي:

1. ضرورة تغيّير ذهنياتنا تجاه مجال التعليم وآلياته واندماجه مع التقنية، لأنّ العالم في اعتقادي وحسب الوضع الراهن، وبعد زوال هذا الوباء ستتغيّر تمظهراته العلمية والحضارية والاجتماعية، وبالتالي هناك حتمية الاتجاه نحو الرقمنة وعالم النت بشكل مكثف.
2. دعم وابتكار البرامج والتطبيقات العربية، ابتكاراً عربياً بحتاً، وتشجيع الكفاءات قصد دعم هذه البرامج وفق متطلبات التكنولوجيا المعاصرة.
3. تقديم الدعم المادي والمعنوي للمعلّم والمتعلّم، ولابد من التنويه إلى ملامح التطور الذي نلمسهُ في الميدان التعليمي، كتجارب بعض دول الخليج العربي (كالسعودية والإمارات والبحرين وغيرها) ممّن أحدثوا قفزةً عظمى في مجال اللّسانيات الحاسوبية ودمج اللغة.
4. تسيير المناهج وفق تخطيط ديداكتيكي ناجح، تُبنى عليه سياسة (التعليم التعاوني- Cooperative education)، كما تبنتهُ حديثاً بعض الجامعات في الدول الإسلامية (كماليزيا وإندونيسيا وغيرها) ولديهم تجاربٌ ناجحة في تعليم اللغة العربية، وتطوير علومها اللّسانية.
5. اتخاذ موقف حاسم يمكّن اللّغة العربية من التطور الفكري والحضاري، حسب الرؤى الهادفة للّسانيات العربية وتعليمياتها، من خلال اتخاذ استراتيجيات هامة تدعم تحديث وتعريب كل مجال من مجالات عمل العربية على المستوى السوسيولوجي للمجتمع العربي ككل قومية وهُوية وعلماً.

هوامش البحث:

(1)- الدّريج محمد: *تحليل العملية التعليمية، مدخل إلى علم التدريس*، الإمارات، دار الكتاب الجامعي العين، (2000)

(2)- المسدي، التفكير اللّساني في الحضارة العربية، (1986)
(3)- مازن الوعر: *قضايا أساسية في علم اللّسانيات الحديث*، دار طلاس للدّراسات والترجمة والنّشر (1988)
(4)- ابن خلدون، *المقدمة* تحقيق: الجودي درويش، صيدا بيروت، المكتبة العصرية، (2002)
(5)- أبي اسحاق إبراهيم الشيرازي: *التبصرة في أصول الفقه*، تحقيق، د. محمد حسن هيتو، دار الفكر بدمشق ط1 (1980)
(6)- الحاج صالح، عبد الرحمن، *بحوث ودراسات في اللسانيات*، العربية، الجزائر، موفم للنشر، ج1 (2007)
(7)– الخليل، العين، ص:05
(8) - الخولي محمد علي: *تقييم الكتب الأساسي لتعليم اللغة لغير الناطقين بها*، مكة المكرمة، منشورات جامعة أم القرى، ، (1413ه)
(9)– المرجع نفسه، ص: 25
(10) - المسدي، عبد السلام (1984م)
(11)- بوهادي عابد *تحليل الفعل الديداكتيكي*، دراسات، المجلد39، العدد (02) ص:371 (2012)
(12)- جورج مونان، ترجمة: جمال الحضري: *معجم اللّسانيات*، ط1، ، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت (2012)
(13)- حاج صالح عبد الرحمان: *بحوث ودراسات في علوم اللّسان*، الجزائر، الجزائر، موقم للنشر، الجزائر (2012)
(14)- حاج صالح عبد الرحمان، المرجع نفسه، ص: 200
(15)- حاج صالح عبد الرحمان: *بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية*، موفم للنشر، الجزائر، ط1 (2007م)
(16)- حاج صالح، عبد الرحمان: *بحوث ودراسات علوم اللّسان*، موفم للنشر، الجزائر (2012)
(17)- حاج صالح، عبد الرحمان:، النظرية الخليلية الحديثة، *مجلة اللغة والأدب*، جامعة الجزائر، معهد العربية وآدابها، ع 10، ص:23 (1996)
(18) - حاج صالح، عبد الرحمان، المرجع نفسه، ص: 181
(19)- خياري هبة، المرجع نفس، 197
(20)- خياري هبة، المرجع نفسه، ص: 203
(21)- عابد الجابري محمد: *التراث والحداثة. دراسات ومناقشات*، المركز الثقافي العربي، بيروت ط1، (1991)
(22)- غلفان مصطفى، اللّسانيات في الثقافة العربية الحديثة، حفريات النشأة والتكوين، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء المغرب ط1، (2006)
(23)- غلفان مصطفى: *"اللّسانيات العربية الحديثة*، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، عمان، (2013)
(24)– نبيل عبد الهادي وبسندي خالد وأبو حشيش، *مهارات في اللغة والتفكير*. عمّان الأردن، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1 (2003)
(25)- نحلة محمود أحمد: *مدخل إلى دراسة الجملة العربية*، دار النّهضة العربية، بيروت (1988)
(26)- ياشوش، جعفر: الصوت بين المعيارية والموضوعية، *المجلة الجزائرية في الأنثربولوجية والعلوم الاجتماعية*، العدد21، ، ص: 07 (2003)
(27)-حاج صالح، اللّغة العربية والبحث العلمي المعاصر، أمام تحدّيات العصر، (2005)
(28)- ينظر: المرجع نفسه، ص:33
(29)– ينظر المرجع نفسه، الصفحة نفسها

(30)- ينظر: إبرير، بشير" أصالة الخطاب في اللّسانيات الخليلية الحديثة"، *مجلة العلوم الإنسانية*، ، جامعة خيضر، بسكرة، ع 7، ص: 08 (2005)

(31)- ينظر: ابن منظور: *لسان العرب*، حرف الياء، *والتهذيب للأزهري*، ج1، ص: 21 -24، مخطوط رقم 9 (لغة) بدار الكتب المصرية نقلاص عن المخزومي، المهدي:الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه.- بيروت – لبنان، دار الرائد العربي، ط2، (1986)- ص.86

(32)- ينظر: أبوزيد نوراري، سعودي: *اللغة وبناء الإنسان، دراسات في اللّسانيات التطبيقية (حقل التعليميات)*، المحمدية، الجزائر، دار قرطبة للنشروالتوزيع، ط1 (2016م)، ص:19

(33) - ينظر: الراجحي عبده: *علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية*، بيروت، دار النهضة العربية، ، ط3 (2004)، ص: 16

(34)- ينظر: المسدي، عبد السّلام، *اللّسانيات وأسسها المعرفية*، الدار التونسية للنّشر، تونس (1986م)، ص:135

(35)- ينظر: أوشان علي آيت، *اللّسانيات الوبيداغوجيا، "نموذج النّحو الوظيفي"*، دار الثقافة، الدار البيضاء (1998) ص: 23

(36)- ينظر: حاج صالح عبد الرحمان: *بحوث ودراسات في علوم اللّسان*، موفم للنشر- الجزائر (2007)، ص: 200

(37)- ينظر: حاج صالح، عبد الرحمان: *بحوث ودراسات في علوم اللّسان*، الجزائر، موفم للنشر، الجزائر (2007)ص: 205.

(38)– ينظر: غازي مختار طليمات: *في علم اللغة*، دار طلاس للدّراسات والترجمة والنشر، ط2 (2000م)

(39)- ينظر:حاج صالح، عبد الرحمان: *بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية*، ج1، موفم للنّشر الجزائر (2012) ص: 371

(40)-ينظر: خياري هبة، خصائص الخطاب اللّساني، أعمال ميشال زكريا نموذجاً، منشورات زين، الوسام العربي للنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط1 (2011)

(41)- De Saussure, Course in General Linguistique (1916),Wade Baskins translation, 1974.p:XIV.

(*)-مصطلحُ الديداكتيك didactique (أو التربية الخاصة، أو منهجية التدريس، أو التدريسية، أو التعليمية) يُحيل إلى المنهج المتبَع في تقديم التعلمات من المعلم إلى المتعلم؛ وما يَستدعيه ذلك من فَهم وعمق ودراية بالمادة المقدَّمة، وطبيعة المتعلمين وسياقات أخرى كثيرة تُراعى عند التخطيط للتعلُّمات، وهو مفهوم أوسع من البيداغوجيا بحيث يشمل النقل الممنهج عبر مختلف الطرائق كالتعليم بالكفاءات والمقاربة للمحتوى المعرفي.

(*) - مصطلح حداثي أصبح يتداول في ميدان الدّراسات اللّغوية بكثرة، ويقصدُ به تسويق الإنتاج الفكري والحضاري والعلمي والسياحي والاجتماعي للغة الأم، إلى بلدن تنطقُ بغيرها وبالتالي يدعم هذا المفهوم قوة المجتمع والأمة ويمكّن لغتها من الهيمنة وفرض علومها على مستويات ومعايير عالمية.

(*) - اللّسانيات علم غربي حديث نشأ على يد: يرى دي سوسير الذي يرى:أنّ اللّسانيات فرع من السيمياءSemiolog : أي علم العلامات العام الذي يدرس الأنظمة المختلفة للأعراف التي بدورها تمكّن الأعمال البشرية من أن يكون لها معنى وتصير في عداد العلامات. وبهذا يمكن للّسانيات أن تكون نموذجاً حيّاً للسيمياء حسب دي سوسير- لأنّ طبيعة العلامات الاعتباطية والعرفية في اللغة واضحة للغاية ولا يعتريها أي غموض.